



في رحاب التوراة

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

دراسات وحوارات روحانية معمقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

نقدم إلى عائلة شميل بجزيل الشكر والعرفان على دعمهم السخي لكتاب "في رحاب التوراة" (Covenant and Conversation)، وهندي هذا الكتاب لذكرى الحاخام الرابع هاري (حاييم) شمل طبّب الله ذكره.

"لقد عشقت تعاليم التوراة التي قدمها الحاخام حاييم شمل منذ اللحظة الأولى لاظطيحي عليها، خاصة وأنه عمل جاهدا على لا تنترق تعاليمه للحقائق السطحية فقط، بل تعمق في علاقتها بالحقائق الموجودة وراءها. وبرفقة زوجته آنا، تلك المرأة الاستثنائية ذات الستين ربيعاً، فقد أنسس الحاخام حاييم حياماً مكرسة لحب العائلة والمجتمع والتوراة، فكانا زوجين مُؤثرين ومثالاً يُعتد به بكل ما تحمله الكلمة من معنى، الأمر الذي كان له عمق الأثير على..." - الحاخام جوناثان ساكس

With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.
"I have loved the Torah of R' Chaim Schimmel ever since I first encountered it. It strives to be not just about truth on the surface but also its connection to a deeper truth beneath. Together with Anna, his remarkable wife of 60 years, they built a life dedicated to love of family, community, and Torah. An extraordinary couple who have moved me beyond measure by the example of their lives." — Rabbi Sacks

"بِمَدِبَار" هو النصُّ الأُسْبُوعِيُّ الأوَّلُ مِنْ كِتَابٍ "بِمَدِبَار" (أي سِفَرُ الْعَدْدِ)، وَهُذَا النَّصُّ الأُسْبُوعِيُّ يَحْمِلُ نَفْسَ الْعَنْوَانِ الَّذِي يَحْمِلُهُ اسْمُ هَذَا الْكِتَابِ. يَبْدُأُ هَذَا النَّصُّ الأُسْبُوعِيُّ بِالْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَقْطُوعِ الْأُولَى وَيَنْتَهِي بِالْآيَةِ الْعَشْرِينَ مِنَ الْمَقْطُوعِ الرَّابِعِ.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

صوت السكون

يُقْرَأُ هَذَا النَّصُّ الأُسْبُوعِيُّ مِنْ نَصْوُصِ التُّورَةِ عَادَةً خَلَالِ يَوْمِ السَّبْتِ (السَّبَّاتِ) الَّذِي يُسِيقُ حُلُولَ عِيدِ الشَّقْوَعَوْتِ (عِيدِ الْأَسْبَيعِ)، لَهُذَا رِبْطٌ كِبِيرٌ لِلْحَاخَامَاتِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَعِيدُ الشَّقْوَعَوْتِ يَمْثُلُ الْفَتْرَةَ الزَّمِنِيَّةَ الَّتِي مَتَّحَنَا اللَّهُ فِيهَا التُّورَةَ، وَكَلْمَةُ "بِمَدِبَارٍ" تَعْنِي "فِي الصَّحَرَاءِ" فِي الْغُلَامَيْهُ الْعَرَبِيَّةِ. لَكِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَطْرُحُ نَفْسُهُ هُنْتَا: مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الصَّحَرَاءِ وَالْتُّورَةِ، بَيْنَ الْخَلَاءِ الْمُقْفِرِ وَكَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

لقد وضع كبار الحاخامات عدة تفاسير لهذا الأمر، فمن وجهة نظر الـ"مخيلات" * فإن الله عز وجل قد منحنا التوراة نهاراً جهاراً وعلى الملا، وفي أرض لا تعود ملكيتها لأحد، لأنه لو منحنا التوراة في أرض يسرائيل لقال اليهود لباقي البشر: "ليس لكم أي نصيب فيها". لهذا فإن من يريد أن يقبل التوراة فالخيار متروح له لأن التوراة ليست حكراً على أحد¹. وهنالك تفسير آخر يقول بأنه في حال منح الله التوراة لليهود فوق أرض يسرائيل، لكن هذا غدرًا لباقي البشر في العالم حتى يعتضوا على قبولها، ويمكن ربط هذا التفسير بأحد المعتقدات الحاخامية التي تقول بأن الله عز وجل قد عرض التوراة على جميع الشعوب والأقوام الأخرى (قبل أن يعرضها على اليهود) لكنهم رفضوا، فكانوا يختلفون الأعداء والحجج لعدم قبولها.² كما فسر البعض هذا الأمر على أن الخلاء لا يكفل أحداً شيئاً لدخوله، والحال نفسه ينطبق على التوراة التي لا تكفل أحداً أي شيء لقبولها، ذلك لأنها منحة الله التي وهبنا إياها.³

* ملاحظة توضيحية من المترجم: مخيلتنا هي كلمة آرامية يُقابلها في المعنى الكلمة العبرية "ميداه" والتي تعني المقياس أو القانون، وفي هذا السياق فإن المصود بها هو تشريعات معيّنة تختص بالتفاسير النقدية للنصوص الدينية الموجودة في التناخ (الكتاب اليهودي المقدس)، والتي تُستخدم في التفاسير المדרاشية التي تتطرّق للهلاخاد (قوانين الشريعة الدينية اليهودية). وبالرغم من وجود بعض الأعمال المشابهة التي يُطلق عليها اسم "مخيلات" إلا أن كلمة "مخيلات" بعد ذاتها تستخدم للتعبير عن مجموعة التفاسير المدراشية التي تتطرّق لقوانين الشريعة اليهودية الموجودة في سفر الخروج على وجه التحديد والتي يُطلق عليها أيضاً "مخيلات ديري بيشعئيل" (المقصود بيشعئيل هو الحاخام ييشعئيل بن إليشع الذي كان من الحاخamas المعاصرین للحاخام اليهودي الكبير عقيفاً). لكن من المستبعد أن يكون الحاخام يشعئيل هو الذي قام بإعداد وتجميع محتوى النسخة الخاتمية للمخيلات بمفرده، لكن عدداً كبيراً من تفاسيره موجود بالفعل في المخيلات، ناهيك عن أن عدداً لا يأس به من تفاسير المدراش لقوانين الشريعة اليهودية تتفق مع دراسته الفكرية للتفسير بالإضافة إلى أنها تتفق مع تفاسير الحاخام يشعئيل وتلامذته وتابعيه، وبذلك فهي تحتل قدرًا كبيراً من كتاب المخيلات خاصته. وبجميع الأحوال فإن نسبة كبيرة من محتوى المخيلات تتضمن مدرasha للأعداء الذي يتطرق بإسهاب وتفصيل إلى القصص والروايات الموجودة في التناخ، بالإضافة إلى تطرق قسم كبير منه إلى الأخلاقيات والقيم والقضايا الأخلاقية على اختلافها.

لكن هنالك تفسير يحمل في طياته سبباً أكثر روحانية، وهو أن الصحراء هي أرض الصمت والهدوء والسكون، إذ ليس بها أي مظهر بصريٍّ من شأنه أن يُشتَّتِ انتباهاك، ولا يوجد بها أيٌّ ضجيجٌ في الأفقٍ من شأنه أن يُعْكِر صفو الهدوء. في الوقت نفسه، لا بد أن نُبيِّنَ بأن الصحراء لم تكن هادئةً عندما منَّ الله التوراةَ لبني إسرائيل، فكان البرُّ والرعدُ وصوتُ الشوفار (وهو البوّق المصنوع من قرن الأيل أو الكبش)، فبدأ الحال حينها وكانَ الأركانَ الأرضَ ترجفُ من حولِ هذا الموقف. لكن في وقتٍ لاحقٍ عندما وقف النبي إيلياهو/إلياس على الجبلِ نفسه بعد مواجهته لأنبياءَ بَعْل، فقد وجَدَ اللهُ في صوتِ خافتٍ ولم يُجده في النار أو العواصف أو الزلازل، ووُجده تحديداً في "قلْ دمماهَا دَفَاه" أي "الصوتُ الخافتُ المنخفض" (بحسب ما يذكرُ سفر الملوك الأول في المقطع التاسع عشر في الآيات 9-12).

إنني أُغَرِّفُ هذا الصوت على أنه الصوت الذي يُامِكَنُكَ سماعه فقط إذا كنتَ مُصغِّياً. في خضمِ سُكُونِ الـ"ميدبار" (يعني الصحراء) يُمِكِّنُكَ سماعُ من يتحدَّثُ إِلَيْكَ وَيُخَاطِبُكَ ("مَدَابِير" باللغة العبرية)، كما يُمِكِّنُكَ سماعُ صوتِ الموضوع أو الشخصِ الذي يدور حوله الحديث (ميدubar باللغة العبرية). وحتى تتمكَّنَ من سماع صوتِ الله عَزَّ وجلَّ فإنه ينبغي عليك أن تَجِدَ السُّكُونَ المُصْغِيَ بين ثنايا روحك.

وفي هذا السياق أستذكِّر أحد الأفلام الوثائقية التي بَثَّها التليفزيون البريطاني قبل سنوات عديدة، وهو فيلمٌ يتطرقُ إلى أعظم الديانات في العالم ويحمل اسم "البحثُ الطويل" (*The Long Search*).⁴ وعندها تطرقَ الفيلم للديانة اليهودية، بدا المذيع رونالد آيرِ مندهشاً من حول الإِرْبَاكِ الذي رأه، خاصةً تلك الأصوات العالية التي سمعها حين كان الطلبة يجادلون ويناقشون بعضهم البعض في حلقات الدراسة في المدارس الدينية اليهودية "بيت هامِدراش". وهُنَّا يوجه المذيع سؤالاً للبروفيسور اليهوديِّ الأمريكي الحائز على جائزة نوبل إيلي فيزيل (وهو بالمناسبة أحد الناجين من المحرقة النازية) تعقيباً على هذا المشهد قائلاً: "هل يوجدُ أي شكلٍ من أشكال من الْهُدوءِ في الديانة اليهودية؟"، فيجيبه البروفيسور قائلاً: "اليهودية مليئة بالْهُدوء... لكننا لا نتحدَّثُ عنه".

إن الديانة اليهودية هي عقيدة معنوية تملئها كلماتُ القدسية، وعبرَ هذه الكلمات خلقَ الله عَزَّ وجلَّ هذا الكون، تماماً مثلما تُخبرنا الآية السابعة من المقطع الثاني من سفر التكوين: "وقال الله ليكُنْ نور، فَكَانَ نور". وتبعاً لِترجمة (أي ترجمة) أنكلوس^{*}، فإن قُدرتنا على الكلام هي التي تجعلنا بشراً، فقد تُرجمَت فيه الآية السابعة من المقطع الثاني من سفر التكوين "صَارَ نَفْسًا حَيَّةً" إلى "صارَ نَفْسًا نَاطِقَةً". إن الكلمات تخلقُ وتُصنِّعُ الكثير، وعبرها يتَّمُ التواصل بين البشر، وعلاقتنا الاجتماعية بسلبياتها وإيجابياتها تتَّسَكُّلُ عبر اللغات، لهذا نَجِدُ اليهودية توْلي اهتماماً كبيراً لمدى قوَّةِ وتأثيرِ الكلمات سواء في بناءِ العالم أو هدمه.

ومن هذا المنطلق، نجد أن الصمتَ في الكتاب اليهودي المقدس ("التناخ")** يحمل في طياته مدلولات سلبية بالعادة، إذ توضح التوراة كيف "كانَ أَهَارُونَ/هارونَ صَامِتاً" عقب وفاة ابنه نَدَافَ وأفيهو (بحسب ما هو مذكور في الآية الثالثة من المقطع العاشر من سِفر اللاويين).

* ملاحظة توضيحية من المُترجم: ترجمة أنكلوس (אַנְקָלוּס) هي الترجمة اليهودية الaramية الرئيسية للتوراة، والتي اعتُمدت كترجمة رسمية ثم أصبحت الترجمة الaramية القياسية للتوراة التي يستخدمها اليهود على نحو يوبي، بالرغم من أن اللغة الaramية لم تُعد مُستخدمه من قبل غالبية اليهود. وترجمة أنكلوس تُنسب إلى أحد نبلاء الرومان الذي اعتنق الديانة اليهودية وينبئ أنكلوس، حيث عاش في القرن الأول قبل الميلاد (بين عامي 35-120 ق.م.). كرس أنكلوس حياته لدراسة التوراة وأصبح من أتباع الحاخام إلיעزَر بن هورقانوس والحاخام يهوشع بن خانيا. هناك قصة معروفة عن أنكلوس وعمه الذي كان إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية، حين نصَّحَه بأن يمضِ قُدُّماً في البحث عن أمِّ ليس بتلك القيمة في تلك الفترة لكنه سيُصبح في غاية القيمة مُستقبلاً، فمضى أنكلوس باحثاً عن هذا الأمر ووجد الديانة اليهودية.

** ملاحظة توضيحية من المُترجم: التناخ هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "تُوراة، نَفَيْتِيم، كَتُوْفِيم" (أي التوراة والأثنياء والكتابات)، وَيُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهودي المقدس الذي يضمُ أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر العُرُوج وسفر اللاويين وسفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سفر يوشع، وسفر القضاة وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول والثاني وسفر إشعياء وسفر إرميا وسفر حزقيال، وسفر إثني عشر الأنبياء الآخرين). ويتضَّاف لها أسفار الكتابات، والتي تضمُّ الهاغيوجرافيا، أي كُتب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخamas والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمُّ أحد عشر كتاباً، وهي سفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر أيوب، وسفر روث (راعوث)، وسفر نشيد الإنshaw، وسفر الجامعة، وسفر مراثي إرميا، وسفر أستير، وسفر دانيال، وسفر عزرا ونحemia، والجزءُ الأخير من التناخ يضمُّ أسفار تدوين التاريخ. بالتالي يضم التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سفراً (كتاباً).

وَحَالَةٌ مُشَابِهَةٌ مِن الصَّمَت مُذَكُورَةٌ فِي سِفَرِ الْمَزَامِير فِي الْمَقْطُوع 115: "لَيْسَ الْأَمْوَات يَسْبِحُونَ اللَّهَ، وَلَا مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوت". وَالحال نَفْسَه يَنْطَبِقُ عَلَى مَا تَذَكِّرُه الآيَة الْثَالِثَة عَشَرَ مِنَ الْمَقْطُوعِ الثَانِي مِنْ سِفَرِ إِيَّوْف /أَيُوب وَالَّتِي تَقُولُ: "وَقَعَدُوا مَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ، وَلَمْ يُكَمِّهُ أَحَدٌ بِكَلْمَةٍ، لَانَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ كَابِتَهُ كَانَتْ عَظِيمَةً".

لَكِنْ لَا يُمْكِنُنَا التَّعْمِيمُ وَالقولُ بِأَن جَمِيعَ حَالَاتٍ وَمَوَاضِعِ الصَّمَتِ فِي التُّورَة تَحْمِلُ فِي طَبَاتِهَا مَدْلُولَاتٍ سَلْبِيَّةٍ أَوْ حَزِينَةٍ، حِيثُ تُخِرِّبُنَا الآيَة الْثَانِيَة مِنَ الْمَقْطُوعِ الْخَامِسِ وَالسَّتِينِ مِنْ سِفَرِ الْمَزَامِيرِ: "لَكَ الصَّمَتُ يُسَبِّحُ يَا اللَّهُ"، بِمَعْنَى أَنَّهُ حِينَ تَتَمَلَّكُنَا حَالَةٌ مِنَ الرَّهْبَةِ أَمَّا عَظِمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَحْبَةُ كُونِهِ وَأَبْدِيهِ زَمَانِهِ، فَإِنَّ أَعْمَاقَ مِشَاعِرِنَا وَعَوَاطِفِنَا تَكُونُ فِي حَالَةٍ مِنَ الصَّمَتِ أَمَّا تَلْكَ الْعَظِيمَةُ لِأَنَّهَا تَعْجَزُ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْكَلِمَاتِ عَمَّا نَرَاهُ. كَمَا كَانَ كَبَارُ الْحَاخَامَاتِ يُقْدِرُونَ جِدًا حَالَةَ الصَّمَتِ وَالسَّكُونِ، وَوَصْفُوهُمْ بِأَنَّهَا "سِيَاجُ الْحِكْمَةِ" (تَبَعًا لِمَا هُوَ مَذَكُورُ فِي كِتَابِ مِشَنَاهِ أَفْوَتِ 3:13). بِمَعْنَى آخَرَ، كَانَ كَبَارُ الْحَاخَامَاتِ يَؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْكَلَامُ يُعَادِلُ قِرْشَاهَا فَإِنَّ الصَّمَتَ يُعَادِلُ قِرْشَاهِينَ (تَبَعًا لِمَا يَذَكُرُ التَّلْمُودُ فِي مَجِيلَةِ، بَابِ 18). وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَقُولُ الْحَاخَامُ شَمْعُونُ بْنُ غَامِلَيْلِ: "لَقَدْ أَمْضَيْتُ طَيْلَةً حَيَايَيْ بَيْنَ الْحُكْمَاءِ، وَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا أَعَظَمَ مِنَ الصَّمَتِ" (تَبَعًا لِمَا هُوَ مَذَكُورُ فِي كِتَابِ مِشَنَاهِ أَفْوَتِ 1:17).

أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ أَن تَأْدِيَ الشَّعَائِرُ وَالْمَنَاسِكُ وَالصَّلَاوَاتِ الَّتِي كَانَ يُؤْدِيهَا الْكَهْنَةُ فِي الْهَيْكِلِ الْيَهُودِيِّ الْمُقَدَّسِ كَانَتْ جَمِيعَهَا مُحَاطَةً بِالصَّمَتِ، حِيثُ كَانَ الْلَّاوَيْونَ يُنَشِّدُونَ الْأَنَاشِيدَ فِي بَاحَاتِ الْهَيْكِلِ، فِي حِينَ لَمْ يَكُنْ الْكَهْنَةُ يُنَشِّدُونَ أَوْ يَتَحَدَّثُونَ إِطْلَاقًا عِنْدَمَا كَانُوا يُقْدِمُونَ عَلَى الْقَرَابِينَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، خِلَافًا لِنَظَرَائِهِمْ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ فِي الْمُعْتَقَدَاتِ الْقَدِيمَةِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَوْضُحُ الْبَاحِثُ وَالْمُؤَرِّخُ يَسِرَائِيلُ كَنُولُ حَالَةً "صَمَتُ الْمُقَدَّسِ"، وَهُوَ الْأَمْرُ ذَاتِهِ الَّذِي مَا يُؤْكِدُ عَلَيْهِ كِتَابُ الرَّوْهَارِ (الَّذِي يُعْتَبَرُ مَرْجِعًا لِلْقِبَلَةِ وَالْتَّصْوِفِ الْيَهُودِيِّ)، مُعْتَبِرًا أَنَّ هَذَا الصَّمَتَ هُوَ بِمَثَابَةِ الْوَسْطِ الَّذِي يُبَنِّي فِي الْهَيْكِلَانَ السَّمَاوِيِّ وَالْأَرْضِيِّ (ج 1 ص 2).

كَمَا يَوْجُدُ الْكَثِيرُ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ صَقَلُوا مَهَارَةَ الصَّمَتِ باعْتِبَارِهَا أَسْلُوبًا لِتَحْقِيقِ الْانِضِبَاطِ الْرُّوحِيِّ، وَمِنْهُمْ أَتَابُعُ حَرْكَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْحَسِيدِيَّةِ * مِنْ بِرَاتِسْلَافِ، وَالَّذِينَ يَنْتَهِجُونَ أَسْلُوبَ التَّأْمُلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْبَارِي. وَهُنَّاكَ مَجَمُوعَاتٌ أُخْرَى تَتَنَاهُجُ أَسْلُوبًا يُدْعَى تَعْبِيتُ دِيبُورِ (الصِّيَامَ عَنِ الْحَدِيثِ)، بِمَعْنَى الْإِنْتِنَاعِ عَنِ الْكَلَامِ. أَضِيفُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ وَاحِدَةً مِنْ أَهْمَ الصَّلَاوَاتِ الْيَهُودِيَّةِ وَهِيَ صَلَاةُ الْوَقْوفِ (صَلَاةُ الْعَمِيدَاهُ بِالْغُلَغَلَةِ الْعَرَبِيَّةِ) تَوْضُعُ بِأَنَّهَا تَفِيلَاهُ بِلِلْحَاشِ (الصَّلَاةُ الصَّامِيَّةُ) وَذَلِكَ لِأَنَّهَا لَا تُؤْدَى جَهْرًا بِلِيُؤْدِيهَا الْمُصْلِحُونَ فِي قَرَارَةِ أَنفُسِهِمْ، فَهِيَ صَلَاةٌ يَعُودُ أَصْلَاهَا إِلَى حَنَّا/حَنَّهُ الَّتِي كَانَتْ تُصَلَّى فِي قَرَارَةِ نَفْسِهَا مُحَرَّكًا شَفَتِيهِا فَقَطْ فِي صَمَتٍ وَهِيَ تَدْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيُرْقِبُهَا بِطَفْلٍ تَبَعًا لِمَا تَذَكِّرُهُ الآيَةُ الْثَالِثَةُ عَشَرَ مِنَ الْمَقْطُوعِ الْأَوَّلِ مِنْ سِفَرِ صَمَوئِيلِ الْأَوَّلِ: "كَانَتْ تَتَكَلُّمُ فِي قَلْبِهَا، وَشَفَتِهَا فَقَطْ تَحْرَكَانَ، وَصَوْتُهَا لَمْ يُسَمِّعْ".

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْمُعُ بِكَاءَنَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ بَكَاءً صَامِيَّاً، فَفِي الْفِقْهِ الْحَزِينَةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ سَارِهِ وَطَلْبِهَا مِنْ زَوْجِهَا أَفْرَاهِيمَ أَن يَطْرُدَ هَاجِرَ/هَاجِرَ وَابْنَهَا، نَجُدُ أَنَّ التُّورَةَ تَحْدِثُنَا بِأَنَّهَا كَانَتْ تَبْكِي عَنْدَمَا بَدَأَتِ الْمَيَاهُ تَجْرِي تَحْتَ قَدَمِ ابْنِهَا الصَّغِيرِ يَشَمَّعَيْلَ /إِسْمَاعِيلَ بَيْنَمَا هُوَ عَلَى وَشَكِّ أَنْ يُفَارِقَ الْحَيَاةَ.

مُلَاحَظَةٌ تَوْضِيحيَّةٌ مِنَ الْمُتَرْجِمِ: حَرْكَةُ الْحَسِيدِيْمِ هِيَ حَرْكَةُ دِينِيَّةٍ يَهُودِيَّةٍ رُوحَانِيَّةٍ إِحْيَايَيَّةٍ أَرْثُوذُوكْسِيَّةٍ ظَهَرَتْ فِي أَورُوْبَا الْشَّرْقِيَّةِ (أُوْكَرَانِيَا) فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ عَلَى يَدِ الْحَاخَامِ يَسِرَائِيلِ بْنِ إِلْيَازِرِ وَالَّذِي يُعْرَفُ بِاسْمِ الْحَاخَامِ بَعَالِ شَيمِ تُوفِّ. وَيُسْتَنَدُ أَتَابُعُ حَرْكَةِ الْحَسِيدِيَّةِ (أَوِ الْحَسِيدِيُّونَ، وَهِيَ كَلِمةٌ تَعْنِي الْوَرَعِينَ أَوِ الْأَنْقِيَاءِ) فِي تَعَالِيِّهِمُ الْدِينِيَّةِ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْيَهُودِيَّةِ الصَّوْفِيَّةِ الْمُعْرَفَةِ بِالْقِبَلَةِ وَذَلِكَ بِهَدْفِ إِيجَادِ تَجْرِيَةِ رُوحِيَّةٍ بَدِيلَةٍ وَمُبَاشِرَةٍ لِلوصُولِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ خَلَالِ الصَّلَاةِ وَالْتَّأْمُلِ وَغَيْرِهَا مِنِ الطَّقْوَسِ بِإِرْشَادِ رُوحِيِّ مِنَ الْبَيْبِيِّ (بِمَعْنَى الْقَادِيِّ الرُّوحِيِّ صَاحِبِ الْكَارِيزِمَا وَالْأَثْيَرِ). الْحَرْكَةُ الْحَسِيدِيَّةُ تَعْتَبِرُ بِمَثَابَةِ تَوْجِيهٍ رُوحَانِيٍّ بَدِيلَ لِلتَّوَجُّهَاتِ الْدِينِيَّةِ الرُّسْمِيَّةِ وَالْتَّعْلِيمِيَّةِ لِمَعْارِسَ الْمُعْتَقَدِ الْيَهُودِيِّ وَالَّتِي ظَلَّتْ مُوجَدَةً حَتَّى ظَهُورُهَا فِي تَلْكَ الْفَتَرَةِ. وَخَلَالِ أَحَدَاثِ الْمَحْرَقَةِ (الْهَهُولُوكُوسُتُ). كَادَتِ الْحَرْكَةُ الْحَسِيدِيَّةُ عَلَى وَشكِ الْانْدَثارِ، لَكِنَّ الْعَشَرَاتِ مِنَ الْفِرَقِ الْحَسِيدِيَّةِ لَا زَالَتْ مُوجَدَةً حَتَّى يَوْمَنَا هَذَا وَيَتَرَكُ وُجُودُهَا فِي دُولَةِ إِسْرَائِيلِ وَالْجَمَعَاتِ الْمَدِينَيَّةِ فِي نِيُويُورِكَ.

بالتالي سمع الله عز وجل "صوت الرضيع" بحسب ما تُخبرنا الآيات 16-17 من المقطع الحادي والعشرين من سفر التكوانين. وفي وقتٍ سابقٍ عندما جاء الملائكة لزيارة أفرهام ليُخبروه بأن زوجته سارة ستتحمل قريباً، كانت سارة تضحك في قرارة نفسها، لكن الله عز وجل سمع صوت ضحكتها رغم أنها كانت تضحك بصمتٍ، مثلما تُخبرنا الآيات 12-13 من المقطع الثامن عشر من سفر التكوانين. وبالتالي فإن الله عز وجل يُنصت إلى أفكارنا حتى لو لم نُعبر عنها بالكلام جهراً.

إن الصمت الذي تتحدث عنه الديانة اليهودية هو "صمت الإصغاء"، فالإصغاء واحدٌ من أسمى وأرق الفنون الدينية على الإطلاق، لأنَّه يعني أنْ نُفسِح المجال للآخرين حتى يتكلموا ويسمعوا. ومثلكما وضحتُ سابقاً في مستهلِ شرحِي لكتاب من كتب الأدعية والصلوات اليهودية (سيدور)⁵، فإنه لا توجد كلمة إنجليزية ترادفُ تماماً الفعل العربي "ش.م.ع" ، لأنَّه فعل يحمل في طياته عدداً من المعاني، ومنها معنى الاستماع والإصغاء والانتباه والفهم والاستيعاب والرد أيضاً. وهذا الفعل كان أحد أبرز العناصر الموجودة في العهد بين الله عز وجل وبين يسrael في جبل سيناء، حين ردد بنو يسrael مرتين قائتين: "جميع ما أمر الله تقبله وتفعله وتسمعه" تبعاً لما تذكره الآية السابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج، وبالتالي كان الفعل "تشمع" بمعنى الأربعة وهي الإصغاء والسمع والانتباه والتتحدث هو التصرف الديني الرئيسي في هذا الموضوع.

وعليه نجد أن الديانة اليهودية ليست مجرد ديانة أفعال وأقوال، بل هي أيضاً ديانة إصغاء واستماع، لأن الإيمان الحقيقي يتمثل في القدرة على الإصغاء للمusic الكامنة وراء الضجيج، وخير مثال عليها هي الموسيقى الصامتة للسموات والتي يتحدث عنها سفر المزامير عبر آياته في المقطع التاسع عشر، هذه الآيات التي تقول:

"السَّمَاوَاتُ تُحدَّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ، وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدِهِ
يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذَيْعُ كَلَامًا، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْلٍ يُبَدِّي عِلْمًا
لَا قُولٌ وَلَا كَلَامٌ. لَا يُسْمَعُ صَوْتُهُمْ
فِي كُلِّ الْأَرْضِ خَرَجَ مُنْطَقُهُمْ، وَإِلَى أَقْصَى الْمَسْكُونَةِ كَلِمَاتُهُمْ"

في الحقيقة كان هذا هو صوت التاريخ الذي التَّعَّت له الأنبياء، وهو صوت الأوامر والوصايا التي أصغى لها بنو يسرائيل فوق جبل سيناء، وهو الصوت ذاته الذي يواصلُ مُخاطبتنا عبر مَرَّ الزمان. إنني أشعرُ أحياناً بأن البشر في العصر الحديث يجدون إشكالية في مبدأ "التوراة المُنزلة من السماء"، ليس بسبب الاكتشافات الأثرية والتاريخية التي ثبتت ذلك دون أدلة شك، بل لأنهم فقدوا القدرة على الإصغاء إلى صوت العلو والرقى الروحاني، هذا الصوت الذي يتعدي كونه مجرد صوت بشري.

ومن المذهل أيضاً أن نجد بأن عالماً مثل سيمون فرويد قد استوحى منهجه للتحليل النفسي من وحي شكل من أشكال الروحانية في اليهودية، بالرغم من حالة المد والجزر في علاقته بديانته اليهودية، وهو نفسه من أطلق على هذه المنهجية اسم "العلاج بالكلام"، رغم أنها في الحقيقة تعني "العلاج بالاستماع"، وهذه هي المنهجية التي تعتمد عليها معظم أساليب العلاج النفسي الفعالة بشكل عام.

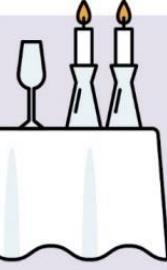
والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يمتلك عالمنا اليهودي آذاناً صاغيةً في وقتنا الحالي؟ هل يُصغي الأزواج لبعضهم البعض؟ هل تُصغي كآباء لأبنائنا؟ هل تُصغي كقادة للمخاوف الكامنة في صدور أولئك الذين نظمُ لأن نقودهم؟ هل نمتلك القدرة على استيعاب مشاعر الألم التي يشعرون بها من يعتقدون بأنهم في حالة إقصاء من مجتمعاتهم؟ هل بإمكاننا أن ندعى حفاظاً باننا نُصغي إلى الصوت الإلهي بينما نحن غير قادرٍ على الإصغاء إلى صوت إخوتنا البشر؟

وفي ختام هذه المقالة، أريد أن أستذكر بعضاً من أبيات قصيدة للشاعر البريطاني ويستان هيو أودن التي قالها في ذكرى وفاة ويليام بيتر بيتيس، حيث كتب قائلاً:

"فَجَرَ النَّبْعَ الشَّافِي
فِي صَحَارِيِ الْقَلْبِ
وَعَلَمَ الْإِنْسَانَ الْحَرَّ
كَيْفَ يُسْبِحُ بِالْحَمْدِ فِي سِجْنِ أَيَامِهِ"

إننا بحاجةٍ ماسةٍ من وقتٍ لآخر للابتعاد عن الصخب والضجيج الذي يحدثه عالمنا الاجتماعي لكي نخلق في قلوبنا حالةً من الصمت والسكون الذي يشبه سُكون الصحراء، فمن خلال هذا الصمت سيُصبح بمقدورنا الإصغاء جيداً إلى "قول دُماماتِ دَقَاهُ"، أي الصوت الخافت لله عز وجل، ذلك الصوت الذي يقول لنا دوماً بأنه يوجد من يحبّنا ويُصغي إلينا، وأنه عز وجل يحتضننا في رحاب حضنه الأزلية، وبأننا لسنا وحيدين أياً كانت الظروف.⁶

-
1. المصدر: *Bahodesh ,Yitro ,Mekhilta*
 2. نفس المصدر، ص 5
 3. نفس المصدر.
 4. تلفزيون بي بي سي البريطاني. عُرض هذا الفيلم أول مرة سنة 1977م.
 5. كتاب صلوات وأدعية نشرته دار كورين للطباعة والنشر (*Koren Shalem Siddur*).
 6. القراءة المزيد عن موضوع الإصغاء، يُرجى الرجوع للمقالة الأولى (نص بريشيست) الموجودة في هذا الكتاب والتي تحمل عنوان "فن الإصغاء"، بالإضافة إلى المقالة التي تحمل عنوان "روحانية الإصغاء" (نص عيقف)
-



حَوْلَ مَايَدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةُ لِلتَّأْمُلِ

في أي مكان آخر كان من المحتمل أن ينزل الله عز وجل التوراة على بني إسرائيل؟ وبرأيك لماذا اختار الصحراء عوضاً عن اي مكان اخر؟

لماذا برأيك يعتبر الإصغاء مهماً للغاية؟ ولماذا يعتبر "أسمى الفنون الدينية"؟

هل تواجه صعوبة في الإصغاء؟ وكيف يمكنك تحسين قدرتك على القيام بذلك؟ هل تعتقد اننا بحاجة "لرؤية الله عز وجل" حتى نقوى قبلتنا به؟

- These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/bamidbar/the-sound-of-silence/>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*



[RABBISACKS.ORG](https://www.rabbisacks.org)

صوتُ السُّكُون